آفاق المعرفة



عازف الصنـــج
«القصة والشاعر»

عبد الفتاح قلعه جي *

عازف الصنج-الشاعر

مما لا شك فيه أن جلال الدين الرومي هو من أكثر الشعراء الصوفيين الذين يحفل شعرهم بالموسيقى، وقصته عازف الصنج التي وردت في منظومته الرائعة «المثنوي» والتي سنأتي على عرضها نموذج لولعه بالموسيقى، يقول كارمان باركس: «هناك موسيقى شعرية كثيفة في مؤلفات الرومي، لكنني لا أستطيع نقلها أو ترجمتها. إنني أنصت إلى ما ينبض بين أبيات شعره من مشاعر وعواطف، وأحاول أن أحذو حذوها كي أستخرجها، وأجعلها تنطلق مغردة وباهرة». وكان هو نفسه عاشقاً وعازفاً على الناي.

---

* أديب ومسرحي وروائي سوري

- العمل الفني: الفنان مطيع علي.

ونراه يبدأ ديوانه المثنوي بحديث الناي كرمز للنفس الإنسانية معبراً عن حنينها للعودة إلى منشئها. يقول:

استمع إلى الناي كيف يقص حكايته، إنه يشكو آلام الفراق: يقول:

إنني منذ قطعت من منبت الغاب، والناس رجالاً ونساء يبكون لبكائي.

إنني أنشد صدراً مزّقه الفراق، حتى أشرح له ألم الاشتياق.

فكل إنسان أقام بعيداً عن أصله، يظل يبحث عن زمان وصله.

لقد أصبحت في كل مجتمع نائحاً، وصرت قريناً للبائسين والسعداء.

وقد ظن كل إنسان أنه أصبح لي رفيقاً، ولكن أحداً لم ينقب عمّا كَمَن في باطني من أسرار»

وهكذا نرى أن جلال الدين الرومي هو ذلك الشاعر الذي أنفق حياته وهو يعزف على صنجه، وما فتئت أنغام هذا الصنج يتردد صداها اليوم في أرجاء العالم.

ولد جلال الدين الرومي عام ٦٠٤ه / ١٢٠٧م في مدينة بلخ في أفغانستان وتوفي عام ٦٧٢ه/ والده بهاء الدين محمد سلطان العلماء وينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق (ر)، ترك الوالد بلخ عام ٦٠٩ مصطحباً معه ابنه الصغير جلال الدين محمد هرباً من المغول إبان الحروب التي اندلعت بين جنكيز خان والدولة الخوارزمية، ثم اتجه إلى نيسابور، وهناك التقى بالمتصوف الشهير فريد الدين العطار فتوسم بالولد النبوغ وأهداه كتابه أسرار نامة. وتابع الوالد رحلته فحط الرحال في قونية - الأناضول- بدعوة من سلطان الروم بهاء الدين كيقباد عام ٦٢٦ه . وقد سافر جلال الدين إلى حلب عام ٦٣٠ه ومكث في المدرسة الحلوية واستفاد من علامة حلب كمال الدين بن العديم. ثم اتجه إلى دمشق وأقام في المدرسة المقدسية وجالس الشيخ سعد الدين الحموي وكان في دمشق الشيخ محي الدين بن عربي، ثم عاد إلى قونية عام ٦٣٤ وعكف على التدريس والإفتاء. وفي سنة ٦٤٢ه قدم قونية من تبريز متصوف هو شمس الدين التبريزي محمد ابن علي بن ملك فانقطع إليه جلال الدين وأحدث فيه انقلاباً روحياً فأوغر صدور تلامذته عليه فغادر قونية مما ألهم الرومي وضع ديوانه «شمس تبريز» ثم وضع كتابه «المثنوي» ويحتوي على أرق الشعر وأعذبه، وهو غني بالمعرفة والحكمة الصوفية المتعالية والقصص الرمزية. توفي جلال الدين الرومي يوم الأحد في الخامس من جمادى الثانية عام ٦٧٢هـ / ١٧ كانون الأول عام ١٢٧٣م.

وفي هذه السنة يحتفل العالم ومنظمة

اليونسكـو بذكــرى مـرور ثمانمئــة عــام علــى ميــلاد الشاعــر الكبير جــلال الدين الرومــي، تتنــازع في ملكيتــه والاحتفال بذكــراه ثلاثة أمم هي: أفغانستان وإيران وتركيا، وهــو في الحقيقة ملك لجميع الشعــوب، ولجميــع العارفين والباحثين عن الحقيقة، وذلك بما تركه من آثار أدبية وفكرية كان لها مكانتهــا وتأثيرها في الشــرق والغــرب معــاً، حيث يجــد القــارئ لــدى الشاعر من الحكمــة الروحية، وجمال الفكر والفــن، وصدق التعبير، وروعــة التصوير، مــا يحيي النفــس الإنسانيــة ويؤنسهــا، ويغني العقل بالمعارف العلويــة والدنيوية ويمتعه، ويعرض للبشريــة نماذج في السلــوك نبيلة تقوم على الحب والخير والسلام. وقــد أكد على ذلك في بيتين مــن الشعر له كتبا على ضريحه في قونية-تركيا، وفيهما يقول:

يا من تبحث عن مرقدنا بعد شدِّ الرحال
قبرنا يا هذا في صدور العارفين من الرجال

تقول عنه المستشرقة الألمانية البروفيسورة أنّــا مــاري شيمِّــل (١٩٢٢-٢٠٠٣م): «بلغت



أشعــاره قمة الوجــد والانتشــاء، وقصائده مفعمة بالموسيقى في غاية الروعة والجمال، برغم تلقائيتها».

و آنّــا ماري أحبــت العيشــ في الشرق، وأقامت فترة طويلة في الهند وباكستان، وقد وضعت كتابًا ضخمًا عن جلال الدين الرومي عنوانه الشمس الظافرة (١٩٧٨)، كما وضعت كتاباً آخر عــن الرومي بعنــوان: «إنه الريح وأنت الغبار»، تُرجِمَ أيضًا إلى الفارسية. وقد تُرجِمَ لهــا كتاب في القاهرة بعنوان أنا ماري

شيمِّــل: نموذج مشرق للاستشراق،[1] بترجمة وتعليــق ثابت عيد، الــذي كان أحد طلابها، وتقــديم د. محمد عمــارة. يتنــاول الكتاب جانبًا من سيرتها الحافلــة، ويعرض لنماذج من كتاباتها عــن التصوف الإسلامي. وهي صاحبــة مشــروع ضخم وتجربــة فريدة في مجال الاستشــراق والتصــوف الإسلامي. و من المستشرقين الأوروبيين القلائل في القرن العشريــن الذين أرسوا قواعــد صحيحة في الدراســات. وكانت بعيدة عــن روح المركزية الأوروبيــة التي تستعلي بحضارة الغرب على الحضــارات الأخرى، فكانــت نموذجاً راقيا ونبيلاً منصفاً للاستشراق، وقد ألفت أكثر من ثمانين كتابًا ومجلدًا، بلغات مختلفة. وامتازت بفهمها العميــق للروح والمعــاني الكامنة في النصوص الصوفية ولسلوك المتصوفة. وهي القائلــة في رابعة: «كانت رابعة العدوية المرأة الأولى التي تُدخِل فكرة الحب الإلهي الطاهر في الفكر الصوفي. لقــد أرادت أن تشعل في الجنة نارًا وأن تسكــب في جهنم ماء. وصار الحــب لفظًــا أساسيًّا في الفكــر الصوفي.» وعن الحــلاج، شهيد الحب الإلهي تقول: «لا يزال شعراء العــالم الإسلامي يتغنون بمصير الحلاج، العاشق القائل بمذهب وحدة الشهود والثائــر اجتماعيًّا، الذي يدين الشعر الألماني له، باعتباره الفراشة التــي تلقي بنفسها في اللهــب لتتذوق تجربــة أو معاناة «مماتي في حياتي وحياتي في مماتي».

وتــرى آنّــا مــاري أن الفضل يعــود إلى الصوفية في انتشــار الإسلام في العديد من البــلاد مثل الهند وشرقي آسيــا وأجزاء من أفريقيــا؛ فقد دعــوا إلى المبــادئ البسيطة للإسلام بنموذج الحب، من دون التطرق إلى مسائل معقدة ودينيــة وفقهية. تقول: «وجد فنانو المدن والفلاحــون وعشاق الموسيقى أو طالبو التأمــل الروحاني في التصوف وطنهم الروحــاني وراحتهم النفسيــة؛ وبذلك لعبت الطرق الصوفية دورًا مهما في نشر الإسلام.» وتــرى أنّ «عرفان» ابن عربي و«غزل» جلال الديــن الرومــي الملتهب صاغا معــالم الفكر الصوفي في العصور اللاحقة.

كان للتصــوف أثر كبــير في ثقافة العالم الإسلامي. فهو الذي عمق الرسالة الإنسانية للإســـلام بالــدفء والمشاعر وفتــح القلوب للجمــال الإلهي و السعادة العلوية حين تشتد المحــن ولجلال الدين الرومي تعريف مبسط وجميل للصوفية حين سئل: ما هو التصوف؟ فقال: التصوف هو إحساس القلب بالسعادة حين يدنو وقت الحزن.

في عــام ١٩٩٥ نشــر الشاعــر الأمريكي كارمــان باركس كتابه «الرومــي المميز» The Essential Rumi فــكان الشــرارة التــي

أشعلت اهتمام أميركا بشاعر اللغة الفارسية. وفي لقاء أجري معــه في الآونة الأخيرة، أشار باركــس إلى أن مهمتــه في ترجمــة أعمــال الرومــي بدأت بطريقة غــير معتادة. وقال «لم أكــن سمعت بــه من قبل قط» قبــل أن يقدم إليه الشاعر الأميركــي المعروف روبرت بلاي أحد دواوين الرومــي في ١٩٧٩، وكان مكتوبا بأسلــوب أكاديمــي رديء، وكان هو الترجمة الإنجليزية الوحيدة لأشعــار الرومي في ذلك الوقت، فقال الشاعر بلاي لباركس حينئذ «إن تلك الأشعار تحتاج لمن يفك عقالها ويخرجها من القفص المحبوسة فيه.» ويقول: إن طبيعة أفــكار المذهب الصوفي التي تغلب على أشعار الرومي وجدت صدى لها بين الأميركيين الذين يسعون إلى هــذه الخاصيــة. وإن التساؤلات التــي طرحها الرومي بأسلوب شعري «لا أعلم مــن أين جئت، ولا أعرف مــا يجب أن أفعل» تعتــبر معبراً عن مشاعر عــدد لا يحصى من الأميركيين الذين يتمتعون بحس روحي قوي. ويرى باركس أن نفحات قصائد الرومي تحمل في ثناياها جوهر الرسالة الإسلامية، ألا وهي التسليم بقضاء الله عز وجل.

وحــول النهج الذي اعتمــده في الترجمة يقول: «لقد صغت أشعاره كشعر حر أو مرسَل باللغــة الإنجليزية الحديثة». وهذه الصياغة هــي أقوى مــا لدينا مــن تقاليــد وأعراف شعرية». وأشار باركس إلى أنه بالرغم من أن هــذا الأسلوب للترجمة لم يكــن مألوفاً، فإنه اجتهــد بشدة كمــا يقول: «كي يظــل دقيقاً ومتفقاً مع ما رسمه الرومي من صور شعرية، وآمل أن يكون أيضاً متفقاً مع روحه.»

وتقــول فيليســس تيكيل المحــررة بمجلة بابليشــار ويكلــي، وهي مجلــة للإصدارات الأدبية: «إن شعبية الرومي تعود إلى ما نعانيه من ظمأ روحي كبير».

ومنذ هجمــات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، أشــار عدد من المعلقــين إلى أن الرومي كان بمثابــة المعبر الــذي وصل بــين الأميركيين والإســلام. وقد يتفق الكثــيرون مع الشاعر الألمــاني هانز ماينكــي الذي قــال إن شعر الرومي هو «الأمل الوحيد في الأوقات المظلمة التي نعيش فيها».

ويقول ستيف هولغيــت المراسل الخاص لنشــرة واشنطن: «خــلال السنــوات العشر الماضية، حسبما تقول مصادر متعددة، فاقت مبيعات دواوين جلال الدين الرومي مبيعات دواوين أي شاعــر آخر في الولايات المتحدة. وبالبحث على شبكة الإنترنيت نجد أن كتابة اسم الرومي ينتج عنها ظهور عشرات الآلاف مــن المواقع التــي ورد اسمــه عليها. وتوجد في الأسواق الأميركيــة الآن، سواء كانت تلك الأســواق في حرم الجامعــات أو في محلات

بيع الكتــب أو أماكن أخرى كتب وروزنامات وأكواب قهــوة وقمصان عليهــا صور جلال الدين الرومــي. ويضيف أصبح جلال الدين الرومي بالرغــم من أنه ليســ أمريكياً أكثر الشعراء شعبية في الولايــات المتحدة. ورغم أنه لم يكــن معروفا فيها قبل عشــرة أعوام، إلا أن الإقبال علــى دراسة أعماله انتشر في كل الجامعات الأميركيــة. كما تنشر الأبواب الثقافية في الصحــف الصادرة في كل المدن الأميركيــة الكــبرى تقريباً مواعيــد وأماكن قراءات أشعاره وإلقــاء محاضرات عنه وعن أعمالــه. وأكبر مقياس على مدى شهرته، هو قيام مجموعة من نجــوم السينما والمطربين بتسجيل أشعاره..»[٢]

وكان المستشرق الإنكليزي الشهير الأستاذ نيكلسون من قبل قد أنفق في دراسة الرومي ثلاثــين عاماً، منهــا خمسة وعشــرون عاماً قضاهــا في نشر المثنوي وإعــداد ترجمة له مدعّمــة بالشروح والتعليقــات، وقد قال في شعــره: «إننا نرى فيه صــورة شاملة للوجود بأكمله منطلقة أمامنا خلال الزمن، مستمرَّة إلى الأبــد؟ إن هذا الشعــر إلى جانب طابعه الصــوفي انطوى علــى ثروة مــن السخرية والتهكــم، والمواقف التي تثــير الرثاء، وصور رسمتها يــد صنّاعٍ ماهر ما مسَّــت شيئاً إلا كشفت حقيقة جوهره».

وقــد تابع تلميــذه أ.ج.آربــري – أستاذ الدراســات العربيــة والشرقيــة بجامعــة كامبريــدج- الاهتمــام بالرومــي فنشر عنه عدة كتب في الترجمة والدراسة أدرج بعضها ضمن قوائم اليونسكو التي تمثل روائع الآداب الإنسانيــة. وفيــه يقــول: «في الرومي نلقى واحــداً من أعظم شعــراء العالم، عمق فكر، واختراع صور، وتمكناً راسخاً من اللغة. وهو يبرز في هيكل العبقرية العظمى في التصوف الإسلامي».

ولمحمد خلــف الله مقال بعنوان:«جلال الديــن الرومي في نظــر الباحثين» يأتي فيه علــى آراء بعضــ مفكري الغــرب في شعره وفلسفته.[٣]

أمــا في الشــرق الإسلامــي فقد حظي كتاب «المثنوي» بالاهتمام الكبير، فقد تناوله الدارســون والشــراح، وأخذت أفــكار وآراء مؤلفه مولانا جــلال الدين سبيلها إلى الفكر الإسلامي الحديث، وخاصة على يد الشاعر والفيلســوف الكبير (الهنــدي- الباكستاني) محمد إقبال (١٨٧٣-١٩٣٨م)، الذي اعترف في منظومتــه أسرار خــودي (أسرار الذات) بتأثير جــلال الدين علــى فلسفته في إعلاء القيــم الروحيــة التــي تعصــم الإنسان من الانزلاق في مهــاوي المادية، وفي جعل العشق قيمة إيجابية لا سلبية. أما شاعر النقشبندية

الأكبر عبد الرحمن الجامي (١٤١٦-١٤٩٢م) فقد وصف مولانـــا بقوله: «إنـــه لم يكن نبياً ولكنه أوتي الكتاب».

كان جـــلال الديـــن الرومـــي وأفـــكاره وفلسفتـــه ملهمـــاً للعديـــد مـــن الفنانين في الرسم والموسيقى والتعبير الحركي والسينما والمسرح، ومن ذلك الفيلم الشهير الذي يصور حياته، وفي المسرح قدمت فرقة مسرح المدينة من استانبول مسرحية «مولانا» في حلب عام ٢٠٠٦ وتحكي بشكل رمزي - أسطوري علاقة الرومي بأستـــاذه شمس الدين تبريزي وبحثه عنه، حيث نجد جلال الدين في المشهد الأول من المسرحية أمام البئر التي يحكى أن شمس تبريز قـــد قتل ورمي فيهـــا، ويلتقي الرومي بـــين الغفوة والصحوة بالحلاج فيهديه عباءة التوحيد المصنوعة من جلد النسيمي المتصوف الحروفي الذي سلخ جلده وهو حي، ثم يلتقي بعمـــر الخيام الذي يقول لـــه إن البحث مؤلم ولكنه أمر جوهري وحيوي. ثم ينزل الرومي إلى البئـــر ماراً بهيـــاكل عظمية لبشر وطيور كانـــوا قد سلكوا هذا الطريـــق قبله وضحوا بحياتهم فداء لإيمانهـــم ومعتقداتهم، ويبدأ الرومـــي بحفر البئر بشوكة وردة أعطتها إياه العنقـــاء حتى يصل إلى نـــواة الأرض، وتحير كيـــف يخرج من قلب الـــبركان، غير أن قصة الهجرة إلى السيمـــرغ في كتاب منطق الطير للعطار، تدله على الطريق، وفي وادي المعرفة يلتقي بزرادشت فيخبره عن سبب ظلام العالم، وفي بحثـــه عن أستـــاذه شمـــس تبريز يلتقي بآخرين منهم مينوشـــن فيتحدثان عن ابتعاد الناس عن الأخـــلاق والآداب والديانة بسبب تعاليم خاطئة يتلقونهـــا من رجال الدين، ثم يلتقي بيونس إمرا الـــذي يحاول إقناعه بأن شمس تبريز قد مات، وفي مقبرة اللامعروفين يرى واحداً ممن شاركوا في قتل شمس تبريز فيطلب مـــن مولانا أن يقتلـــه بقوس الربابة فيقول له بأنه في الدين لا يوجد حقد، وعليه أن يطلـــب الغفران، مما يظهـــر له النسيمي الذي سلخ جلـــده وبيده رماد الحلاج ويطلب منه أن يغســـل وجهه بالرمـــاد. وعلى حافة الموت يظهر له فجأة شمس تبريز ويعر ف منه لم يغادره فعلياً منذ أن نزل إلى البئر، وهو الآن يشاهده من خلال ذاته مثلما تنعكس صورته في المرآة. وبلقائهمـــا يكون جلال الدين قد عـــبر الوديان السبعة، ونسمـــع صوت الأنهار والبحار، فيندمجان في عـــالم البحر (الإيمان المطلق)، والوجود الكلي، ويدركان معاً أن سر الإنسان عنـــد الله، أما سر الله فهما ما زالا يبحثان عنه.

لقد أوردنا هـــذا الشاهد المسرحي لنبين أولا جانبـــاً من الأبعـــاد الفكريـــة للأعمال المستلهمه من حياة وفكر جلال الدين الرومي

، وثانياً لأننا سنجـــد هذه المعالجة المسرحية مفيدة لنا في فهـــم قصة عازف الصنج التي نقدمها في هذا البحث.

عازف الصنج - القصة

تحتل قصة عازف الصنج حيزاً هاماً من الجزء الأول من المثنـــوي من صفحة (٢٥٢-٢٨٠)(٤) ومـــن البيـــت ١٩١٣ وحتـــى البيت ٢٢٢٢ وهـــذا لا يعني أن أحداث هذه القصة قد استغرقت فعلياً ٣٣٠ بيتاً من الشعر ، لكن الرومـــي كعادته يتخذ من القصة إطاراً عاماً لفلسفته وحكمته، ويفرِّع من القصة الرئيسية قصصـــاً أو أمثـــالاً أو شواهد أخرى لخدمة الأفـــكار المطروحـــة، ومثل هـــذه التفريعات نجدهـــا في كليلة ودمنة أيضـــاً وفي ألف ليلة وليلة.

تبدأ القصة بقوله:

أسمعت أنه كان في عهد عمر
عازف للصنج(٥) بارع؟
كان البلبل يغدو ثملاً بصوته، وكان الطرب - بإنشاده العذب- يصبح مائة طرب.
وكانت أنفاسه تزين المجالس والمجامع،
وكان غناؤه يقيم القيامة!
لقد كان مثل إسرافيل الذي يرجع صوته
الأرواح إلى أجساد الموتى
أو كان مثل رسائل إسرافيل، يَنبت بسماعها
جناحان للفيل!

ولسوف يصبح إسرافيل ذات يوم صيحة
تهب الروح لمن تحلل جسمه مئة عام
وللأنبياء أيضاً أنغام في باطنهم، بها
للطالبين حياة لا تقدّر بثمن.

يعيد الشاعـــر أحداث قصتـــه إلى عهد الخليفـــة عمر بـــن الخطـــاب (ر)، وهي في حقيقتها قصة متخيلة مما يبتدعه المتصوفة لبثِّ أفكارهم وآرائهم ومواجدهم فيها. بطل القصة فنـــان عازف للصنـــج كان في شبابه بارعـــاً في الموسيقى والغنـــاء، ويستفيض في وصـــف مقدرته الفنيـــة فيشبهـــه بإسرافيل الذي يعيـــد الأرواح إلى أجساد الموتى الذين تحللت أجسادهـــم بترجيعات صوته ورسائله – ورسائل إسرافيل هنا هـــي أنغامه- مؤكداً على أهمية الموسيقى والغناء في حياة وإحياء النفوس. ولكن الشاعـــر لا يدعك مسترسلاً في هذا الوصف الحسي الخارجي للموسيقى التـــي تسمعها الأذن، فهو مـــرادٌ أيضاً ولكنه ليس مقصـــوداً وحده، وإنما ينعطف ليقابلها بالموسيقـــى الحقيقيـــة الباطنيـــة (وللأنبياء أيضاً أنغـــام في باطنهم) وهي الموسيقى التي لا تسمعها الأذن لأنها نغم القلب، يتابع:

وليست أذن الحس تسمع هذه الأنغام،
فإن أذن الحس نجسة من الظلم

وإذا كان الأنبيـــاء قـــد رحلوا فـــإن هذه الموسيقـــى الداخليـــة مستمرة مـــع الصفوة

العارفــة للحق الذين يسميهــم الأولياء، فهم إسرافيــل الزمــن الحاضــر، وهكــذا يأخذ إسرافيــل وجــوداً دنيويــاً متمثــلاً في هذه الصفوة التي تحيي نفوس الناس، ولكن ما الذي تقوله هذه الأنغام لمن تعلق بالدنيا وركن إلى مغرياتها المادية، هنـــا يجنح الشاعر إلى الفلسفة قائلاً:

إنّ أنغام باطن الأولياء تبادر بقولها: «يا أجزاء النفي والعدم

تنبهوا وارفعوا رؤوسكم من «لا» النفي،

واخرجوا بها من الخيال والوهم!

ويا أيها المنحلّون في عالم الكون والفساد، إن أرواحكم الباقية لا تنمو ولا تولد»

ولو أنني شدوت بطرف من هذه الأنغام،

لرفعت الأرواح رؤوسها من القبور.

فلتجعل أذنك قريبة منها، فليست ببعيدة عنك، ولكني لم يؤذن لي بنقلها إليك

ونرى الشاعر في هذا البيت الأخير يدعو الإنسان إلى التأمــل والسعي ليستطيع سماع هــذه الأنغام الروحية، ويقــول إنه لن ينقلها إلينــا لأن هذه الأنغــام لا تعزف لمن لا يكون مستعداً لتلقيها.

وهو يدعو الذين فنيت قلوبهم عن الحق، وغرقــوا في العالم المادي، فصاروا في العدم، أن يستمعوا إلى نــداء الحبيب، ونداء الحق يجــيء وَحْياً أو مــن وراء حجاب، ومثل هذا النداء الخالــق للحياة هو الــذي منح مريم المسيح (ع).

لقد متنا وتحلل كياننا كله، وجاء نداء الحق فنهضنا جميعاً.

ونداء الحق يجيء محتجباً وبدون حجاب، إن الوهاب هو الذي ألقى لمريم -في جيبها- العطاء.

فيا من قلوبهم تحت جلودهم متحللة بالفناء! عودوا من العدم بنداء الحبيب

يتوقف سرد أحداث القصة مؤقتاً ليستمر ســرد الأسرار والأفــكار الخاصــة بالشاعر ضمن ذلك الإطار، مــع إشارات إلى أحاديث يأتــي بمضامينها في صياغــات شعرية، فهو مثــلاً يشير إلى المأثور النبوي من كان مع الله كان الله معه، وإلى عقيدة الصوفية بالإنسان الكامل وأنه مجلى الذات الإلهية

إنك أنــت السر، فأي مــكان للقول بأنك صاحب السر

فإن صرت – من ولهك بالحق- «من كان لله» فإني أصبح لك، «كان الله له»

فحيناً أدعوك: «أنت»، وحيناً «أنا» ومهما أقل فإنني الشمس المشرقة!

وحين أشرقتُ من مشكاة نفسي، حُلَّت مشكلات العالم.

وفي الأبيات مــن (١٩٦١-٢١١١) يعرض الشاعــر للنفحات الإلهيــة وتأويله للحديث

النبوي «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرّضوا لها» وهذه النفحات هي التي تطفئ نـــار النفس المشتعلة بنـــار الشهوات، وتحيي الروح الميتة فتدب فيها الحركة.

إن النفســ النارية وجدت فيها ما يطفئ نارها! كما أحست منها الروح الميتة بالحركة (تدب فيها)!

(فهـــذه النفحة) لـــو وقعـــت في الأرض والسمـــاء، لانصهرت مرائرهـــا-في الحال- (رعباً) !

...

وبالأمس مدّت لي هـــذه (النفحة) يدها، في صورة أخرى، فعرضت لي بضع لقم سدّت (أمامي) الطريق

إن لقمانياً قد أصبح رهناً من أجل لقمة! وهـــذا الوقت وقـــت لقمان، فلتذهبـــي أيتها اللقمة!

المفارقـــة هنـــا في الجناس بـــين «لقمان الحكيم» رمز الحكمة الروحية، وبين «لقمة» رمـــز المنفعة المادية. ويريـــد باللقماني الروح الذي هو حكمة لقمان، وقد عرضت للشاعر تلك النفحة الإلهية لكنه أضاعها وسد أمامه الطريق إليها سعيه نحو لقمة (مادية) فنسي روحه وأهملها.

ووخـــز الشهوات الدنيويـــة يحجب النور عـــن عينيك فلا تستطيـــع السير في الظلمة. والسبيل إلى النور هو الحب المتعالي كما كان النبي يقول لعائشة:

وما دمت لم تخرِج من قدمك هذه الشوكة فإبصارك مظلم، فكيف تتجوَّل

إن الإنسان الذي لا تسعه الدنيا، يحجبها عنه سن شوكة

ولقد جاء المصطفى ليضع الوفاق، فكان يقول: «كلميني يا حميراء كلميني!»

ياحميراء! ضعـــي نعل (الجواد) في النار، حتى يغدو هذا الجبل من نعلك ياقوتاً

الكلام يـــزرع المحبة والوفاق في القلوب، ولهـــذا كان الرسول (صـــ) يطلب من عائشة أن تكلمه، وكان يحلو له أن يناديها «حميراء» لوجههـــا الأبيض المشوب بالحمـــرة، وكرمز لتأصيـــل المحبـــة يطلـــب منها علـــى لسان الشاعر أن تضـــع نعل الجواد في النار. وكان من العادات العربيـــة المتبعة لبعث المحبة في القلوب أن يُكتب اسم المحبوب على نعل دابة ويوضع في النـــار ثم تقرأ عليه رقى وتعاويذ، وهكذا كان يطلب مـــن عائشة أن تعمل على إثارة الحب في قلبه حتى يتملكه الحب تماماً ، ومثل هـــذا الحب هو الـــذي يحوِّل الجبل المتكـــون من صخور عادية إلى ياقوت، أي إلى كنز من المحبة الصافية الروحية الصافية.

وهكـــذا يرتقى الشاعر بالحب من موقعه الدنيوي كأساس لكل حب (الرسول وعائشة)

أو بــين شخصين، إلى موقــع روحي متعال. وسنرى مع متابعة القصــة أنه برغم الأفكار التــي يفرّعها الشاعــر لم يبتعد عن الجوهر الذي تحمله.

وضمن منظومة القصة الأساسية «عازف الصنج» يورد قصة أخرى على سبيل التضمين أو التغصين، هي قصة عائشة (ر) والمصطفى (ع)، ومغزاهــا أن لعالم الروح سماء غير هذه السماء، وشمساً غير هــذه الشمس، وهي لا تظهر إلا للخواص. وخلاصتها أن الرسول (ص) ذهــب في جنــازة أحدهــم، فوضعت عائشة على رأسها رداء النبي خماراً ، فرأت الأمطار تهطل بغزارة، ولما عاد الرسول (ص) تحسســت ثيابه فرأتها يابسة فتعجبت، فقال لها: إن ما ظهر لها ليست أمطاراً مادية وإنما هي أمطار الغيب.

قالت: «لقد سقط المطر اليوم من السحاب، وها أنذا أتلمس ثيابك باحثة ، ومن عجب لا أراها مبتلة بالأمطار»

فقال: «أي خمار قد ألقيت على رأسك؟»

فقالت: «لقد جعلت رداءك خماراً»

فقال: «فلهذا السبب - أيتها الطاهرة الجيب- أظهر الله أمام عينيك أمطار الغيب

فليست هذه الأمطار من سحابك، فهناك سحب أخرى وسماء أخرى»

هذه النفحــة الإلهية سنجد الشاعر وهو يردفهــا بنفحة مماثلة في مشهد الحلم الذي رآه عــازف الصنج، حين يستأنف القصة من جديــد اعتباراً من البيت رقــم ٢٠٧٢ حيث تستمــر الأحــداث، فقد هرم هــذا العازف المطــرب «الذي طربت لــه الدنيــا» وشاخ، واضطربت أنغامه، وأصبح صوته قبيحاً.

لقد تقوس ظهره كظهر الإبريق، وغدت حاجبه فوق عينيه كالحبل فوق دُبُر الدابة

وأصبح صوته اللطيف ـــ الذي كان ينعش الروح-قبيحاً لا يرى أحد أنه يستحق شيئاً

ويستغــل الشاعر وصفه هــذا، ليقول إن كل جميــل دنيوي يغدو قبيحــاً ، إلا الجمال الروحي.

وأي جميل لم يغد قبيحاً؟ وأي سقف لم يصبح مساوياً للأرض؟

إلا الأصوات في صدور الأولياء الأعزاء، وهؤلاء هم الذين يكون نفخ الصور من صدى أنفاسهم

ويعــود إلى متابعة القصــة فيصف حال الفقر الذي آل إليه العازف الهرم ، فلم يجد أمامه سوى الاعتراف بالآثام والتضرع.

فهـذا المطـرب -حـين شـاخ وضعف-أصبـح -لانعدام كسبه-رهين رغيف واحد

فقال: «يا إلهي! لقـد أطلت عمري ومهلتي،
وأنعمت على خسيس بألطافك!
لقـد اقترفت من الآثام سبعـين عاماً، لكنك
لم تحجب عني نوالك يوماً!
فاليـوم لا كسب لي، وإني ضيفـك! وها أنذا
أضرب الصنج من أجلك، فإني لك»
ورفع الصنج بيده، ومضى طالباً ربه، واتجه
- وهو يتأوه- إلى مقابر يثرب
وقال: إني أطلب من الله ثمن حرير (الأوتار)،
فهو الذي يتقبل برحمة منه زائف النقد

النكتـــة اللطيفة هنـــا- ولا نجدها إلا في الفكـــر الصـــوفي الذي بلـــغ الغاية في الحب والتسامح والثقة بالرحمـــة الإلهية- أن هذا العازف الـــذي كان يعـــزف في مجالس اللهو يتضـــرع إلى الله ويتقرب بالذنـــوب -زائف النقـــد- ويطالب ربه بثمـــن الأوتار التي كان يعزف عليها، كأنما له على ربه دين مستحق! ومثل هـــذا المعنـــى يتكرر في أقـــوال شعراء آخريـــن، غير أن الإضافـــة المفاجئة اللطيفة عند مولانا هـي هذا الدَّين المستحق!

- إن كان لا يرجوك إلاّ مؤمن
فبمن يلوذ ويستجير المذنب
- إلهي إن يكن ذنبي عظيماً
فعفوك يا إله الكون أعظم

وتنتقل القصيـــدة إلى مشهد الحلم، فقد أطال العازف العزف بين القبور وهو الجانب الفني من تضرعاتـــه، وبكى حتى غلبه النوم ، وفي النـــوم تتخلص الروح مـــن أثقال المادة وكثافة البدن، وتعبر الحائط الزجاجي محلقة في السهـــوب الإلهية الفساح، وهنا تتلقى روح العازف المذنب النفحة الإلهية التي أشار إليها النص من قبل.

لقد تخلص من البدن، وألم الدنيا، إلى عالم
بسيط، وإلى ما للروح من سهوب فساح
فهنـاك كانـت روحـه تتغنـى بمـا اعتراهـا،
قائلة: «ليتني أترك هاهنا!
فمـا أسعـد روحـي بهـذا البستـان، وذلـك
الربيـع! إنهـا سكـرى بهـذا المـرج، وبريـاض
أزاهير الغيب
هـا أنـذا أسافـر بلا رأس ولا قدم! وهـا أنذا
أتذوّق السكر بلا شفة ولا لسان!
وهـا أنذا ألهو مع سكان السماء، وقد خلصت
ذاكرتي وفكري من آلام الدماغ!»

ويسترســـل الشاعر في الوصـــف الرائع، والحديث عن هذا السر الإلهي، ثم يقر بعجز الشعـــر واللغة عـــن أن تتســـع لمكنونات هذا السر.

فلو كان المثنوي في حجم الفلك، لما اتسع
لنصف مثقال من هذا السرِّ الإلهي.

وبهـــذا الســـر ، وبتلك الضراعـــة، أخرج العازف شوكة الدنيا مـــن رجله – وقد أشار النص إليها سابقاً- فأصبح قادراً على المشي،

وهكذا تأخذ أفكار النص بعناق بعضها بعضاً في وحدة فكرية وتصويرية ولغوية متكاملة.

وأما ذلك العالم الذي تجلّى في المنام فقد أطلق برحابته قوادم جناحيَّ وخوالفهما لقد كان الأمر يأتيه قائلاً: «لا تكن طامعاً! وما دامت الشوكة قد خرجت من قدمك فلتمش!»

ويقابل الشاعر حلم عازف الصنج، والذي هو رحلة في عوالم الروح، يقابله بحلم آخر رآه عمــر (ر) في المنام، لكنه في هــذه المرة هو نداء من الحق يأمره بإغاثة العازف البائس. وهذا يذكرنا بالنداء الــذي رآه إبراهيم (ع) بأن يذبح ابنه إسماعيل فامتثل للأمر الإلهي. وقد استدل عمر (ر) بأن رؤياه صالحة ويجب تحقيقهــا بــأن قد غلبه النــوم في وقت غير معهود بالنسبة إليه فعلــم بأن هذه الإغفاءة قد جاءته من الغيب لأمر ما.

وفي ذلك الوقت أرسل الله إلى عمر نوماً لم يستطع أن يتمالك منه نفسه فاستولى عليه العجب (وقال): إن هذا غير معهود! لقد جاء من الغيب، وليس أمراً غير مقصود»

فوسّد رأسه وأخذه النوم، فرأى في المنام أن نداء جاءه من الحق، سمعته روحه

هنــا ينقطــع جريــان القصــة ليفلسف الشاعر «النداء الحق»، وأن هذا النداء ليس خاصاً بالبشر وإنمــا تفهمه المحسوسات «إن هذا النداء قد فهمته الأخشاب والأحجار».

«وفي كل لحظة يجيء (نــداء) »: ألستُ« (أي ألست بربكم) فتتخذ الجواهر والأعراض صفة الوجود»

ولسنا في سبيل تأكيد وجود جزيء روحي في التركيب الذري للمــادة وهذا ما يقول به بعض علماء الفيزياء الحديثة، وما تشير إليه الآية الكريمة «وإن من شيء إلا يسبِّح بحمده» ولكن الشاعر يؤكد من خلال رؤيته الصوفية وجود ملكة إدراك في المادة، يقول:

«ولكي تتبين ما قلته عن الإدراك عند الأحجار والأخشاب، استمع جيداً إلى هذه القصة»

وهنــا يورد قصــة النبي (ص) والجذع الحنّان، وخلاصتهــا في الحديث الذي أورده البخاري في صحيــح: «كان النبي إذا خطب استنــد إلى جذع نخلة من ســواري المسجد، فلمــا صُنــع المنبرصاحت النخلــة التي كان يخطب عندها حتى كادت تنشق، فنزل عليه الســلام حتى أخذها وضمّهــا إليه، فجعلت تئنّ أنين الصبيِّ الذي يسكت حتى استقرّت، فقال عليه السلام: «بكت على ما كانت تسمع من الذكر»

من هــذه القصة يصــوغ الرومي حواراً نابضاً بالموجدة والفكــر، وينهيها نهاية تقوم

علـى فلسفة الموت والحيـاة والبقاء الأبدي. فبعـد أن سمـع الرسول (ص) بـكاء الجذع وشكواه، خيّره قائلاً:

قـال الرسول: «أتود (أيها الجذع) أن تصبح نخلـة يجتني منها الشرقي والغربي الثمار؟

أم تريـد أن تغدو في هذا العالم سرواً فتبقى إلى الأبد ريّان نضراً؟»

فقـال الجـذع: «إنني أبتغي ما يـدوم لـه البقاء!». فلتستمع إلى ذلك أيها الغافل! ولا تكـن أقل إدراكاً مـن الخشبة! ولقد دفن الرسـول ذلـك الجـذع تحـت الـتراب حتـى يحشر كالناس يوم القيامة.

نهاية غير متوقعـة في القصة حين جعل الشاعر النبي يَدفن الجذعَ ليبعث يوم القيامة، وهو بذلك تجاوز الإدراك إلى الأنسنة، فجعله يحيا ويحزن ويبكـي ويحن ويدفن ليحيا في الآخرة - عالم البقاء الأبدي- وهو بذلك أيضاً يعلل حرص المتصوفة على الموت للتحرر من عـالم المادة وناسوت الجسـد إلى عالم الكمال والبقاء الإلهي.

وتستمر هـذه القصة المتفرعة عن بعض الأفـكار الرئيسة في قصة عـازف الصنج، تستمـر في حمـل أفـكار مولانـا وفلسفته فيتحدث عن الاستدلاليين في العلم ويصفهم بأنهم «يسعون على ساق خشبية» أما عكسهم فهم أرباب البصر ، ومثلمـا الفارس «وسيلة الجيش إلى الظفـر» فإن «أرباب البصر» هم المؤهلون لحمل هذا الدين.

ثم يسوق الشاعـر مثالاً آخر عن إدراك الأشياء الماديـة فيسرد معجزة الرسول (ص) حين قبض أبو جهل على حفنة من الحصى، وسأل النبي متحدياً :«ماذا في يدي؟» فنطقت الحصيّات بالشهادة.

مع البيـت ٢١٦١ يعود الشاعر لاستكمال أحداث قصة العازف المطرب بذكر مضمون النداء الذي جاء عمر (ر) في المنام:

لقد هتف النداء بعمر (قائلاً): ياعمر ! خلِّص عبدنا من الحاجة!

إن لنا عبداً ذا حظوة واحترام، فجشِّم قدميك التوجه إلى المقابر.

يا عمر! عجِّل وخذ بيدك سبعمائة دينار من بيت المال العام!

واحملها إليه (قائلاً): «يا من أنت مختارنا ومصطفانا! خذ هذا القدر الآن واعذرنا!»

إن هذا القدر ثمن الحرير، فأنفقه! وحين ينفد، عد إلى هذا المكان

لقد تطهر الشيخ من آثامه بالضراعة والألم والبكاء فأصبح المصطفى لدى الله. ويذهب عمـر (ر) إلى المقابر فلا يجد فيها غير هذا الشيخ العازف فيتحيّر ويسأل نفسه:

لقـد دعاني الحق (بقولـه): إن لنا عبداً صافياً مباركاً!

فمتى كان عازف الصنج من خواص الله؟

ألا أيها السر الخفيّ! ما أروعك وما أبهاك!

ويفعــل عمر (ر) ما أمره الحق في النداء، ويسمع منه الشيخ قوله:

لقد أفاض الله في مدح صفاتك، حتى جعل عمر عاشقاً لمحيّاك!

إن الحق يسلم عليك ويسألك: كيف أنت في ألمك وهمومك التي لاتحد؟

ويشعــر الشيخ بالخجل مــن الله، فيتألم ويبكي ويحطم الصنج قائلاً:

سحقاً لك أيها الصنج الذي كان لي حجاباً عن الإله! يا من كنت قاطع طريق يصدني عن سبيل الملِك!

يا من شربت دمي سبعين عاماً! يامن اسودّ وجهي -منك- أمام رب الكمال

آهاً إني -لإمعاني بموسيقى العراق ـــ لم تخطر ببالي لحظة الفراق

وآها فإن طراوة مقام «زير أفكند» الصغير قد أذبلت زرع قلبي، فمات القلب

وآهاً فإني (لانشغالي) بالأصوات الأربعة والعشرين، تركتني القافلة، وانقضى النهار

يا إلهي! إنني أستغيث بك من تلك (النفس) الضارعة إليك! وما أطلب إنصافك إلا من تلك (النفس) الملتمسة إنصافك!

تبدو القصــة وكأنها انتهــت هنا بالندم والبكاء، فقد انتهت أحداثها، لكنها عند أهل العرفان لا يجب أن تنتهي في هذا المقام، مقام البكاء والتوبة، ولابد للصوفيّ السالك طريقه إلى الفناء في المعشوق أن يجتاز هذا المقام إلى مقام الفناء، فالزمن بأبعاده الثلاثة (الماضي والحاضــر والمستقبل) حجــاب عن الله، لأن الزمن يكثّــف الإحساس بالذات، والإحساس بالذات إثــم، والتوبة بما أنها عالقة بالماضي فهــي أقبح مــن الذنب، ولا بــد للصوفي أن يفارق روحــه الحيوانية والتي مبعثها الجسم المظلم الكثيف، والمحركــة للشهوة والغضب، المولِّــدة للحياة والمبرزة للحســ، لتتبعث فيه روح أخــرى هي النفس وهــي هذا الجوهر الكامل الفرد الذي ليس من شأنه إلاّ التذكّر والتحفّــظ والتفكّر والتمييــز والرؤية وتقبل جميع العلوم والصــور المعرّاة عن المادة، فلا ضحك ولا بكاء، ولا أرض ولا سماء وإنما هو بحث وطلب وراء البحث والطلب.

لقــد لقّن عمر (ر) هــذا الشيخ درساً في المعرفة والعرفان، ودلّه على الطريق فأصبح الفاروق مرآة لأسراره:

فقال لــه عمر: «إن انتحابك هذا إنما هو أيضاً إحساسك بذاتك!»

فطريق الواصل إلى الفناء طريق آخر، كما أن الإحساس بالذات إثم آخر.

فالإحساس بالذات مبعثه تذكُّر الماضي، وماضيك ومستقبلك هما حجاب عن الله!

فيا من لم تَعِ معارفُك مانح المعرفة! إنّ
توبتك أقبح من ذنبك!
ويا من تنشد التوبة عن سالف حالك! متى
تتوب عن هذه التوبة
لقد تيقّظت في باطن الشيخ نفسه، فأصبح
الفاروق مرآة لأسراره
فصار كالروح لا بكاء له ولا ضحك! لقد
فارقته روحه (الحيوانية) وانبعثت فيه
روح أخرى
واعترت باطنه في ذلك الوقت حيرة، فخرج
عن الأرض وعن السماء
فهذا بحث وطلب وراء البحث والطلب، وأنا
لا أعرف (كيف أصفه)، فإن عرفت فخبِّرني
بل هو قول وحال وراء القول والحال! (فهذا
الشيخ) قد غرق في جمال ربّ الجلال

وتنتهي قصة عازف الصنج بهذين البيتين الرائعين (٢٢٢١-٢٢٢٢) وفيهما يرى الشاعر أن هذا العالم قد هرم وشاخ في جهله وغفلته؛ فيطلب من الله أن يفيض عليه من نور علمه ورحمته ليجدده. فكل ما في وجودنا البشري هذا من حياة نفسية حيوانية أو روحية ينساب إليه من عالم الغيب مثلما ينساب من المنبع الماء الجاري.

فهذه الشمس تنثر الحياة (على الأرض)،
وهي في كل لحظة تفرغ وتمتلئ.
فيا شمس المعنى! انثري الروح، وَأظهِري
جديداً لهذا العالم الهرم
إن النفس والروح تفيضان من الغيب إلى
الوجود الآدمي كالماء الجاري

الهوامش

١- آنا ماري شيمِّل: نموذج مشرق للاستشراق، ترجمة وتعليق ثابت عيد، تقديم محمد عمارة، دار الرشاد، القاهرة ١٩٩٨.
٢- جلال الدين الرومي يغزو أمريكا. نشرة واشنطن. موقع يو إس إنفو. ستيف هولغيت.
٣- دراسات في الأدب الإسلامي. القاهرة، ١٩٤٧.
٤- مثنوي جلال الدين الرومي ج١، ترجمة وشرح ودراسة د. محمد عبد السلام الكفافي. بيروت ١٩٦٦.
٥- الصنج في فارس آلة وترية يعزف عليها، وهي غير الصنج أو الصنّاجات (النقّارات) في الشام وهي آلة إيقاعية نحاسية.

من مصادر البحث

- آنـا ماري شيمِّـل: نموذج مشـرق للاستشراق، ترجمـة وتعليـق ثابـت عيـد، تقـديم محمد عمارة، دار الرشاد، القاهرة ١٩٩٨.
- جـلال الديـن الرومـي يغـزو أمريـكا. نشرة واشنطـن. موقـع يـو إس إنفـو . ستيـف هولغيت.
- دراسات في الأدب الإسلامي . القاهرة، ١٩٤٧ (مقال محمد خلف الله).
- مثنـوي جـلال الديـن الرومـي ج١، ترجمـة وشرح ودراسـة د. محمد عبد السلام الكفافي. بيروت ١٩٦٦م.
- د. عيسـى العاكوب . يد العشق مختارات من ديوان شمس تبريز لجلال الدين الرومي.
- مسرحية مولانا ، عرضت باللغة التركية على مسرح دار الثقافة في حلب عام ٢٠٠٦م.

